كيركجور: التدين الزائف والديمقراطية

د. غيضان السيد علي*

إذا كان قد قدر لـ سورين كيركجور *S. Kierkegaard* (1813-1855) ** ذلك الفيلسوف الدنماركي العظيم والمعروف في تاريخ الفلسفة بأبي الوجودية – أن يشغل مكانة مرموقة في الفكر العالمي ، فإن ذلك يرجع بالدرجة الأولى لتلك النشأة الدينية التي أكسبته كثيرا من الروحانيات في سن مبكرة ، وإن كانت مثل هذه التربية قد أثقلت كاهله وجعلته يعيش طيلة حياته ما اسماه بـ "معاناة الحقيقة". فقد عاش في بيئة تعكس بشكل واضح تلك النقلة المتشددة التي كانت تعيشها الكنيسة في أوربا بشكل عام والمفاهيم الدينية الرائجة في الكنيسة الانجيلية (البروتستانتية) بشكل خاص ومنها هذه التربية الحزينة القلقة المملوءة بجو الخطيئة التي جعلت كيركجور يبحث عن الهدوء والاستقرار النفسي، لكنه لم يجد سوى القلق والخوف والرعب الذي يملأ نفسه بالكآبة والتوتر والاضطراب، مما يجعله يقول في يومياته: "لقد كنت طفلاً تربى على نحو جنوني كرجل سوداوي عجوز"[1].

أكسبه والده ميخائيل كيركجور تلك النظرة التشاؤمية التي عاشها، فقد عاش هذا الأب في مطلع حياته طفولة صعبة ، فقد كان راعيا للغنم في الأراضي المجدبة بإقليم جوتلند الغربي في الدانمارك، فقد ضاق الفتى بحياة الرعي فهي موحشة قاسية وتشعره بالكآبة والضياع وعصفت الهواجس في نفسه فصعد على ربوة وأخذ يسب هذا الإله الذي يترك طفلا في العذاب دون أن ينجده! ... كما تمثلت خطيئة هذا الأب الثانية في خيانته لزوجته التي كان يحبها حباً عميقا مع خادمته "سورياندا تراوند" التي تزوجها بعد وفاة امرأته الأولى بثلاث سنوات، وهي أم سورين كيركجور[2]. فعاش الأب في خوف وقلق دائم ينتظر عقاب الله له على هاتين الخطيئتين،

على الرغم من الثراء والجاه، رغم كثرة المال والبنين، إلا أنه لم ير ذلك الكرم الإلهي عليه سوي مجرد لعنة، حتى يزداد إحساسا بالحرمان عندما يريد الله أن ينزل به العقاب، لقد كان هذا الأب يعتقد دائما أن العقاب الإلهي الذي سيحل به جراء يأسه من ربه وسبه إياه وإنكار دينه، وخيانته لزوجته، سيتمثل في أبشع الصور حيث سيرى أولاده جميعا يموتون أمام عينيه!.

ولذلك يقول الابن في اليوميات: "لقد ملأ أبي روحي بالقلق، بالقلق أمام المسيحية"[3]. فالمسيحية التي عرفها فيلسوفنا عن طريق أبيه هي المسيحية القاتمة الكئيبة المظلمة التي تركز باستمرار على العذاب والمعاناة. وما أن شب كيركجور عن الطوق حتى بدأ صراعه مع الكنيسة ومع رجالها الذين وصفهم بأنهم تجار دين ولا علاقة لهم بالمسيحية الحقة؛ حيث كانت قصته مع "أدلر" أحد القساوسة هي البداية، فقد روى هذا الرجل وهو قسيس جزيرة "برنهوم" أنه في ديسمبر سنة1843 ناداه السيد المسيح وطلب منه بأن يكتب ما يمليه عليه، وأن يحرق خواطره وكتاباته حول هيجل، وأوصاه بألا يبتعد في المستقبل عن الكتاب المقدس[4]. هنا ثار كيركجور ضد هذا الكلام غير العقلاني ، ورغم رفض الكنيسة لهذا الكلام وفصلها لهذا القس المخرف الذي تراجع عن كلامه. إلا أن فيلسوفنا تساءل عن: كيف يكون القس كاذبا؟ لأنه لو كان صادقا ما تراجع عن كلامه بهذا الشكل المخزي، وذكر قصة قبائل الغال والتي رواها يوليوس قيصر والتي فحواها أن كل صاحب فكرة جديدة كان يأتي وقد وضع حبل المشنقة حول رقبته افتداء لفكرته!!.

هنا انتهي كيركجور إلى اليقين بأن هناك تناقض واضح بين المسيحية الحقة وبين العالم المسيحي المتمثل في الكنيسة ورجالها، وأن القساوسة يقولون ما لا يفعلون، وقد أصبحت مهمته الأساسية منذ عام 1848-1851 هى ضرورة أن يكون حياة الواعظ مطابقة لوعظه،

فالقساوسة- في نظره- زيفوا المسيحية، يدعون الناس كل أحد إلى الزهد والتقشف، ويذكرونهم بالتضحية من أجل المسيح وعن عذاب القديسين، وعن صلب المسيح واضطهاد الرسل، ومع ذلك ينعمون هم برغد العيش مع زوجاتهم ومرتب ثابت بعد التقاعد!.

ومن ثم رأي كيركجور أن كل هذا ما هو إلا استخفاف بالله وتبديل للمسيحية الحقة بأخرى مزيفة، وأن رجال الدين بالكنيسة أفاقون وكاذبون ومخادعون لا يبحثون سوى عن مصالحهم الشخصية، ومن ثم رأي ضرورة العودة إلى المسيحية الحقيقية بكل أصالتها وقوتها الأولى. ولكنه رأي بأنه لا أحد سواه يمكنه أن يقوم بهذه المهمة الشاقة والخطيرة. ظل فترة طويلة صامتا احتراما للمطران "منستر" الذي وعظه ووعظ أباه، فقد كان من أكثر الناس محبة إلى قلب فيلسوفنا بعد أبيه ومحبوبته "ريجينا أولسن". وسرعان ما مات "منستر" وخلفه المطران " مارتنس" الذي قال عن سلفه وهو يرثيه بأنه" كان امتداد للسلسلة المقدسة عائداً إلى عصر الرسل، وأنه كان واحد من الشهود العدول على الحقيقة". هنا لم يجد كيركجور مفر من أن يتكلم فيقول أن الشاهد على الحقيقة يسئ الناس الحكم عليه ، ويهينونه ويعاملونه معاملة سيئة، ويسخرون منه، ولا يملك قوت يومه ، ويخرج من سجن إلى سجن، ثم في النهاية يُصلب أو يُعدم وقد لا يدفن وتترك جثته في العراء أو تتحول جثته إلى ذرات تذروها الرياح. فأين حياة "منستر" الناعمة من هذا كله؟![5]. وبعد أن ظهر هذا الكلام في جريدة الوطن وأصاب الناس بالصدمة، وحاول "مارتنس" الرد عليه بقوله: بأن الشاهد على الحقيقة يتغير من عصر إلى عصر، ووصف مقال كيركجور بالقذر! لكن فيلسوفنا لم يأبه برأي "مارتنس" ولا بالردود الصادرة عن الكنيسة، بل اتجه إلى نقد الكنيسة، ورأي أن الكنيسة القائمة على جانب كبير من الوقاحة!.

تطورت المعركة بين كيركجور وبين الكنيسة حتى صدرت الأوامر من الكنيسة بمنعه من دخولها، حيث نادى أحد القساوسة ويدعى "فيكتور بلوخ":" مادام كيركجور أدان الكنيسة وهاجمها فإن على الكنيسة أن تغلق أبوابها في وجهه". ولكن كيركجور لم يأبه بتهديدات "بلوخ" فقد هجر الكنيسة منذ زمن ولا ينوي العودة إليها، بعد أن أصدر كيركجور مجلة أسماها "الآن" وصدر منها في أربعة أشهر تسعة أعداد يهاجم فيها الكنيسة هجوماً شرساً، وكان من أشهر مقالاته مقال قال فيه:" لقد اهتم القساوسة بألا يطلع الناس على حقيقة المسيحية لأنه كلما زاد عدد **الخراف** كلما حصلوا على مراكز أفضل! وإن كان القساوسة شهودا على الحقيقة فينبغي أن نقطع عنهم رواتبهم وأجورهم، فهذا ما يرتضيه الشاهد على الحقيقة بغير تذمر" [6]. وأيضا قوله :" أحذروا القساوسة فإنهم يقلبون المسيحية إلى ما يضاد ما أراده المسيح" و"القساوسة هم أكلة لحوم البشر" و"إذا رأيت قسيسا فعليك بأن تصيح بأعلى صوتك حرامي، حرامي، كل شيء مزيف، ولو ظهر المسيح الآن مرة أخرى لاندفعوا نحوه ليذبحوه"[7].

وكيركجور هنا ينشد هدفاً أسمى، وهو محاربة "الرياء" والدعوة إلى الإخلاص" بلغة إسلامية،أو كما يقول حسن حنفي يثور ضد مظاهر النفاق في عصره[8]. فيهاجم رجال الكنيسة الذين يدعون الناس للزهد في الدنيا والإقبال على التقشف، والتمسك بالورع والتقوى من أجل الحياة الأخرى ثم يسارع لطلب الثمن والمكافأة على هذه العظات! الأمر الذي ينعكس بالطبع على رجل الشارع الذي لا تفوته بالطبع تلك الملاحظة، فيذهب إلى الصلاة لتأدية " الواجب" فحسب دون أن يحاول مرة واحدة أن يعيش هذه الصلاة بالفعل، ودون أن يحاول قط أن تتحول معتقداته إلى سلوك وأفعال. فيقول إمام عبد الفتاح إمام: "إن ما يحاربه كيركجور هو هذا التدين الزائف الذي لا يشعر بحرج، ولا يجد غضاضة في اعتناق أفكار ومعتقدات لا تتحول على سلوك، وأقوال لا تصير أفعالاً، بل تراه على العكس يحمد الله كثيراً لأنه لا ينفذ هذه المعتقدات، وأنها ليست مطلوبة

عمليا ، ومن هنا تراه يعيش في عالمين منفصلين يروح ويغدو من الواحد إلى الآخر بسهولة "[9].

وهكذا يهاجم كيركجور التدين الزائف الذي يجعل من الشخصية الواحدة شخصيتين منفصلتين ، وتحول الدين إلى مجموعة من الشكليات الجامدة والطقوس الميتة التي لا علاقة لها بالحياة؛ ولهذا فهو يشترط صراحة: "أن كل من أراد أن يعلم الناس المسيحية أن تكون حياته هي تعاليمه"[10].

ولكن السؤال الذي يحتم علينا الإجابة عليه هنا، ما الهدف والغاية من مهاجمة الكنيسة بكل هذه الضراوة، بالرغم من أن فيلسوفنا كان مسيحيا مؤمنا وليس ملحدا؟

وتكمن الإجابة على هذا السؤال في دفاع كيركجور عن "الفرد" وعلاقته الحية بالله، فيستنكر ما فعلته الكنيسة بهذا "الفرد" عندما جعلته يقوم آلياً بتأدية الطقوس الدينية مع جموع المصلين، ويفعل ما يفعله "القطيع" ويخفي ذاته وشخصيته في كيان مجرد اسمه الكنيسة؛ ولذلك نجده يعبر عن ذلك في عبارته الشهيرة "كن ذاتك، صر ذاتك". ففيلسوفنا يريد العودة للاهتمام بالإنسان الفرد الذي ضاع بين التيارات الدينية والسياسية وأحيانا الفلسفية والتي تعمدت القضاء على الفردية وعلى الشخصية البشرية ومحو الفروق الكيفية الأساسية بين الناس، حين جعلت من هذا الفرد " رقماً " في جماعة، أو مجرد فرد في قطيع ،فاهتمت بحرية "الشعب "وكرامة "المجموع" وضاع الفرد وسط الزحام.

وتمر أيام العمر سريعا ويقع فيلسوفنا مغشيا عليه في 12 أكتوبر عام 1855 ومكث في المستشفي حتى وفاته في 11نوفمبر من العام نفسه، ولم يزره سوى شقيقتيه وزوجيهما و"أميل بويزون" صديق شبابه، وكان قسيسا حاول أن ينتزع منه اعترافا بأنه عدل عن أفكاره في مهاجمة الكنيسة

ورجالها، إن كان يريد أن يتناول القربان المقدس، فرد فيلسوفنا: " أريد أن أتناول من القربان المقدس ولكن لا عن طريق القساوسة، إن القساوسة موظفين رسميين لا علاقة لهم بالمسيحية". وأوصى بأن يُكتب على قبره " لم تبق سوى لحظات قليلة.. وبعدها أظفر صراعي على الأرض انتهى إلى الأبد..وفي الفردوس في عالم سلام لا نهاية له.. لن أكف عن الحديث مع يسوع كصديق".

وهكذا حارب كيركجور التدين الزائف الذي يجعل الشخصية الواحدة شخصيتين منفصلتين، والتي تحول الدين إلى مجموعة من الطقوس والشعائر لا دخل لها بالمعاملات. فقد حارب بكل قوة تلك الأفكار والمعتقدات التي لا تتحول إلى سلوك والأقوال التي لا تصير أفعالاً...

فما أحوجنا اليوم إلى جرأة هذا الفيلسوف الذي حرص على نقاء العقيدة وسلامة المعتقد من الرياء والنفاق واقتناص المغانم والمصالح باسم الدين ..وهكذا كان أبو الوجوديين والذي دان بفضله سائر الوجوديين اللاحقين عليه سواء من مثلوا الوجودية المؤمنة من أمثال جابريل مارسيل أو كارل ياسبرز وغيرهم أو من انضموا إلى معسكر الوجودية الملحدة من أمثال جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وألبير كامي .

وإذا كان كيركجور قد هاجم الكنيسة ورجالها من أجل إنقاذ الفرد من الضياع وتخليص الشخصية البشرية من الطقوس الشكلية في الكنيسة التي أدت إلى انفصام هذه الشخصية، وانه شعر أن مهمته الأساسية هي أبراز هذا الوجود الفردي العيني.

إنها صرخة الكائن الفرد في عالم لا يعترف إلا بالجموع؛ الأمر نفسه نجده في فلسفة كيركجور السياسية حيث يحاول إنقاذ الفرد من سيطرة المجموع؛ ولذلك نجده ينتقد بشدة من يفضل فكرة الحشد على التفرد، ووصف من يفضل السير وسط القطيع على أن يتدبر أمره بعقلانيته

الفردية بأنه يهرب من حريته، لأن الحرية تصبح عبئا ثقيلا عليه لا يستطيع أن يتحمله، وذلك لأنه ينؤ بحمل ذلك العبء الثقيل من مسئولية عن الفعل بعد أن يتم ، أو حيرة الاختيار قبل الفعل، ولهذا فإنه يريح نفسه بالسير مع القطيع بغريزة الحيوان، ويرفع شعار "سر مع القطيع تأمن شر المزالق". فمثل هذا الإنسان عند كيركجور يصبح أكثر سعادة إذا أغلق عقله وسار مع القطيع وعندها يتساوى لديه اللغو العميق والنذالة الكبرى والجريمة العظيمة ![11].

كما يحذر كيركجور أن يذوب الفرد وسط القطيع معتمدا على أن الحقيقة هي مع القطيع، أو أن الحقيقة مع الأغلبية، حيث يرى أن فكرة الأغلبية هي فكرة بالغة الحمق فلا يمكن أن يقال أن الحقيقة تعتمد على عدد المؤيدين لها ..العكس تماما هو الصحيح، الحقيقة دائما في جانب الأقلية؛ لأنها تقوم على رأي حقيقي يعبر عن كل فرد فيها، ممن لهم رأي حقيقي . في حين أن قوة الأغلبية ليست سوى وهم أشاعته **عصابة** لا رأي لها. بل أن كيركجور استمر مع فكرته حول تهافت رأي الأغلبية حتى النهاية حيث رأى أنه حين تفوز الأقلية وتتحول أغلبية تصبح زيفا ولغوا فارغا؛ لأنها ستضم الانتهازيين والمتسلقين والبرجماتيين وأشباه هؤلاء جميعا، ويصبح الحق حينئذٍ مع أقلية جديدة.

ولا يمكن الوقوف على حقيقة آراء كيركجور السياسية إلا بالوقوف قليلا عند الأحداث السياسية التي عاصرها؛ حيث شهدت القارة الأوربية في عام 1848 ثورات في كل مكان : ثورة في فرنسا ضد تقييد حق الانتخابات، ثم امتدت الشرارة إلى ألمانيا والنمسا، وزادت تلك النيران اشتعالا بالنسيم الثوري القادم من ايطاليا .. وفي مارس من العام 1848 كانت العروش تهتز في جميع أنحاء أوربا. وما حدث في أوربا امتد بالطبع إلى الدانمارك التي شهدت تغييرا ثوريا من نظام الحكم الملكي المطلق الذي يقوم على نخبة ضئيلة جدا من الأفراد إلى نظام الحكم الدستوري الليبرالي القائم على

سيادة الشعب. وكان لهذه الأحداث السياسية أثرها البالغ على نفسية كيركجور وتكوينه الفكري بل وإنتاجه الإبداعي الذي تجلى في مؤلفه القيم والهام " المرض حتى الموت" الذي نشره في عام 1849، والذي يمكن أن يلاحظ فيه القارئ المتصفح- ناهيك عن المدقق- ثراءً فريدا من الملاحظات النفسية، ورصيد ضخم بالمثل من التأملات الفلسفية واللاهوتية والسياسية، وقد قال كيركجور عنه "أن هذا الكتاب هو أصدق وأكمل مؤلفاتي"[12].

وعلى الرغم من ذلك اعتزل كيركجور المشاركة السياسية تماما ولم يعر تلك الحرب الدائرة بين بروسيا والدانمارك أي اهتمام، بل لم يرد لها ذكر في يومياته إلا وهو يشكو من أنها أخذت منه خادمه فحرمته من الخدمة، كما إنها أحدثت ارتباكاً في ميزانيته، وجعلت أحواله المادية تضطرب، فضلا عن إنها منعته من القيام ببعض الرحلات التي اعتاد أن يقوم بها! [13].

أما مشكلات الشعب الباحث عن الحرية والديمقراطية والتخلص من الاستبداد وإقامة حياة نيابية تعبر عن مطالب الشعب الحقيقية فلم يكن ذلك يخطر ببال فيلسوفنا على الإطلاق!![14]. وهو الأمر الذي يطرح تساؤلا ملحاً يتوجب علينا ضرورة طرح تفسير مقبول له. والواقع أن كيركجور لم يؤمن على الإطلاق بنوع الديمقراطية الذي يعتمد على السماح للأغلبية بأن تقرر كل شيء[15]. فما هو هام وحقيقي بالنسبة له هو الإنسان الفرد لا المجموع . يهتم بالكيف ولا يشغله الكم، ورغم ذلك لا يأبه بتلك العواقب الوخيمة – التي يثيرها الآخرون- والتي تترتب على اهتمامه بالكيف الفردي الذي يرفض المساواة ويدعو إلى التفرقة بين الناس وتبرر الارستقراطية وتؤمن بالامتياز بدعوى أنه يضع نصب عينيه إنقاذ الفرد من الضياع.

يرفض إذن كيركجور أن يعامل الفرد كأحد أفراد القطيع الذي يشعر بسعادة بالغة عندما يسير في ركاب القطيع فيريح عقله ويتخلص من المسئولية الملقاة على عاتق الفرد الحر الذي يتصرف بحرية فردية، وشعر أن مهمته الأساسية هي إبراز هذا الوجود الفردي العيني، لكي يسترد مكانه اللائق بعد أن ضاع في زحمة الجماهير سواء في الشارع أو في الكنيسة أو في الحياة السياسية التي تعتمد على الأغلبية ولا تعير الأقلية أي اهتمام يذكر.

ومن ثم كان لزاما على فيلسوفنا وانطلاقا من هذه الرؤية التي تؤمن بالكيف على حساب الكم ، وبالفرد على حساب المجموع، أن يرفض كل هذه المصطلحات: الديمقراطية والمساواة والشعب والجمهور والحشد والأغلبية..الخ، لأنها تمثل– في نظره- الكم الذي هو أكبر أعداء الروح، كما رأي أن هذه المصطلحات الكمية لا تستخدم في حالة الإنسان إلا " لعد" البشر كحيوانات! [16].

ومن ثم يمكننا تفسير عدد من الفقرات إلي أوردها فيلسوفنا في اليوميات، وتبدو إلى حد ما مبهمة وغير مفهومة ، ومن أمثلتها " أن هناك حشرات تدافع عن نفسها وتتصدى لأعدائها عن طريق إثارة غبار كثيف حولها ، كذلك يلجأ الإنسان بغريزته إلى المجموع الذي هو ضد الفكر وضد الروح ليستريح من إنسانيته "وأيضا قوله: "وعندما يريد الناس حماية أنفسهم من التعامل مع الفكر والروح فإنهم يلجأون إلى الكتائب والفيالق التي ينطمس فيها معالم الفكر والروح، فلا يرتبط الإنسان بالحشود إلا بوصفه حيوانا" [17].

وهكذا يهاجم كيركجور جميع الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية والحركات الثورية الليبرالية التي استهدفت تحرير المواطن من استعباد الحكام.. فكيف تعبر العامة عند كيركجور عن أحلام الصفوة والخاصة؟! كيف يحس المجموع بآلام الفرد الحقيقية وتطلعاته؟! وكيف تنزوي الإرادات الفردية داخل إرادة مجموع أصم؟!..ولذلك بدت فكرة الأغلبية

Majority عنده فكرة بالغة الحمق، فلا يمكن أن تقاس الحقيقة بعدد المؤيدين لها ! العكس تماما هو الصحيح: الحقيقة دائما في جانب الأقلية، وهذه الأقلية دائما أقوى من الأغلبية، ذلك لأن الأقلية قد تشكلت – بصفة عامة – ممن لهم رأي حقيقي فعلا، في حين أن قوة الأغلبية ليست سوى وهم أشاعته عصابة لا رأي لها. بل إنه يرى أنه في اللحظة التي يتضح فيها أن الأقلية هي الأقوى أو تتحول الأقلية إلى أغلبية فإنها تجانب الحق ويصبح الثواب وقتها في جانب الأقلية الجديدة التي تنشأ في مواجهة الأغلبية ، تلك الأغلبية التي تصبح زيفا ولغوا فارغا عندما تضم إلي صفها العصابات والانتهازيين والوصوليين ومعها الكم كله في الوقت الذي تكون فيه الحقيقة مرة أخرى مع أقلية جديدة، ولا شيء يجعل كيركجور يضطرب ويثور أكثر من إدخال عمليات الاقتراع والتصويت في المسائل الروحية [18] .

ويمكن القول أن فلسفة كيركجور – ومن بعده الفلسفة الوجودية – كانت بمثابة رد فعل على تلك النتيجة الهامة التي تمخضت عنها التطورات السياسية والاجتماعية والدينية في العصر الحديث ألا وهي فقدان الذات الفردية الأصيلة، وضياع الذات الفردية ينعكس عند كيركجور في الحركة الفلسفية والدينية عموما وفي المذهب الهيجلي على وجه الخصوص ، وأن ما يحتاجه العصر من وجهة نظر فيلسوفنا، هو إعادة : التميزات والفروق الكيفية ، والتقابلات والتعارضات، كعنصر مكون للوجود الزمني وانبثاق للفردية الأصلية[19].

ولذلك وقبل أن يذهب البعض إلى اعتبار كيركجور من غلاة المؤمنين بالفرد الذين ينادون بجعل الحرية الفردية حرما مقدسا لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف أن تحد أو تقيد، أو من هؤلاء الذين ينكرون على المجتمع حق التدخل فيما يأخذ الفرد أو يدع من أمور الحياة ، بدعوى أن الفرد هو الأساس، وهو الأصل، وأنه سيد نفسه، ولا سلطان عليه إلا

ضميره وما يراه محققا لصالحه وغاياته. وهنا سيكون النقد – بلا شك سهلا ميسورا- فلا يغيب عنا جميعا أن الفرد له نقائص ومثالب قد تنحرف به عن الجادة، وتغريه بالضلال، ولذلك فلابد من فرض القيود عليه، وضرورة تقييد حركاته وشهواته ونزواته، صيانة للمجتمع من عبث الفرد وإفساده وتدميره [20].

فليس هذا هو الفرد الذي ينشده كيركجور ، ولا هو أيضا ذلك الفرد التي تطالب الاتجاهات الفردية بإعطائه الحرية الكاملة، وكفالة حقه في الحركة في أي اتجاه يريد، بل وصيانة هذه الحرية من أن يقتات عليها الأخرون[21].

ولكن الفرد الذي يدافع عنه كيركجور هو ذاك الفرد "المتميز" أو "المتفوق" أو "الخارق للعادة" أو "المستثنى" أو هو الإنسان الأعلى بلغة نيتشه فيما بعد، وليس هو الفرد العادي المتوسط القدرات الذي يكون واحدا بين كثيرين! ولهذا نراه يهاجم متوسطي القدرات بعنف، بل ويهاجم القساوسة الذين دعوا إلى سيطرة فكرة الوسطية *Mediocrity* على الناس[22].

ولذلك يصبح الفرد الذي يسعي كيركجور إلى إنقاذه من صخب المجموع ليس شخصا عاديا لكنه ذو مواهب نادرة، تجعله غريبا عن "الجماهير" التي لا تملك سوى السخرية منه، وإلقاء النكات على نحو لا يخلو من حسد وهذا شيء طبيعي تماما؛ لأنهم بعد أن يسخروا من هذا العظيم سوف يعودون للإعجاب به . ومن ثم فلم يدافع كيركجور أبدا عن الشخص العادي الذي يعيش منسجما مع ذاته وسط الجموع؛ لأن هذا الفرد "لا شيء" لا قيمة له ولا يستحق الدفاع عنه، إنه يدافع عن "المستثنى" عن "رجل المواهب" الخارق للعادة.. وشيئا فشيئا سوف يشكل لنفسه مقولة بالغة الأهمية هي مقولة الأوحد *Unique*، حيث أن صاحبها هو وحده الذي يستطيع الدخول إلى محراب الإيمان، ألم يقل السيد المسيح :"اجتهدوا للدخول من الباب الضيق؟! ألم يقل سقراط من قبل

:"إن باب الرذيلة واسع يدخله الناس جماعات أما باب الفضيلة فضيق لا يدخله سوى شخص واحد "- هو الأوحد الذي يستطيع الدخول إلى مضايق الإيمان فينفتح الطريق أمامه ثم ينغلق عليه. وهذا الباب الضيق لا يعبره في المرة الواحدة سوى شخص واحد، ولا يستطيع المرء المرور إلا بشرط أساسي هو ألا يكون له دليل يرشده أو رفيق يهديه، ورغم ذلك يتشكك كيركجور في وجود مثل هذا الشخص الأوحد ويعرف بأنه غير موجود تماما كلاحقه نيتشة الذي يقر أيضا بأن "الإنسان الأعلى"*Superman* غير موجود[23].

ولكن سؤالا يطرح نفسه ها هنا فحواه، وهل بنقد النظام الديمقراطي يمكن تصنيف كيركجور سياسيا؟ أي هل يمكن اعتباره يمينيا أم يساريا؟ في الحقيقة يتجاوز كيركجور تصنيفات اليمين واليسار معا، فهو يمين حيث يضع بدلا من المذهب والدولة والتاريخ والجدل، الفرد والوجود والديانة والعاطفة، ولكنه في نفس الوقت يثور ضد الكنيسة والعقائد الرسمية وضد مظاهر النفاق في عصره، فهو بهذا المعنى يسار. فالتسليم بالعقائد المسيحية الرسمية ، والاعتراف بالخطيئة الأولى والخلاص في "الأفكار " يمين، ونقد الجزويت ومظاهر النفاق الديني في "البروفنسيال" يسار[24].

وكثير ما يوجه إلى فلسفة كيركجور السياسية الكثير من النقد على أنها فلسفة ارستقراطية تمجد الكيف وتكره المساواة، وبالتالي لا تعترف بشيء اسمه الديمقراطية، ومن ثم يرى كثير من النقاد[25]، أن هناك قصور ذهني شديد عند كيركجور في تعامله مع مذهب الفردية، فمن يستطيع بعد كل هذا الشوط الهائل الذي قطعته الإنسانية في مضمار العلاقات الاجتماعية أن يتصور الفرد على أنه كيان منعزل يمكن أن ينمو وحده .. وعلى ذلك فليس مما يحط من قدر الفرد مطلقا أن تزداد علاقته الاجتماعية عمقا، وأن يتداخل ذهنه في أذهان الجماعة المحيطة به على

الدوام[26]. كما يرى إمام عبد الفتاح إمام أن المساواة بين البشر التي تنادي بها الديمقراطية لا تلغي الفروق الفردية بين الناس، أي إنها ليست "تسوية" أو" تسطيحا "يختفي معها كل تفرد، ويلغي أي نتوء. إن المساواة في الديمقراطية أن يتساوى الجميع، لا فيما بينهم، ولكن أمام شيء آخر هو القانون! ومن ثم تتاح الفرصة أمام الجميع لإظهار مواهبهم وتفوقهم وفروقهم الفردية بغير حسد[27].

كما أن ثمة نقد آخر لا يقل أهمية عن النقد السابق لفلسفة كيركجور السياسية، حيث يرفض كيركجور الثورة في مجال السياسة، فيرى أن الذين يستولون على السلطة بالقوة يكونون باستمرار أدنى خلقيا وعقليا من القائمين عليها بالفعل؛ ثم إن الذين اعتادوا السلطة وظلوا فيها فترة طويلة يسهل باستمرار التعامل معهم لأنهم ألفوا الحكم فلن يصبهم الغرور ولن يتأثروا به فيشعرون بأهميتهم الخاصة! فكيف لهذا الثائر الذي يشبه نفسه بالعاصفة التي تطهر الجو أن يكون مذهبه السياسي يحرص على أن تبقى الأوضاع كما هي بلا تغيير. وماذا تكون الثورة إن لم تكن ذاك التغير الراديكالي الذي يشمل جل جوانب الدولة والمجتمع؟!.

(*) مدرس الفلسفة الحديثة بآداب بني سويف/ مصر

الإحالات :

(**) النطق الصحيح لاسمه هو كيركجور وليس كيركجارد كما هو شائع عند قراء العربية، وقد أكد ذلك ولتر لورى Walter Lowire أكبر المتخصصين في فلسفته.

(1)Brant ,Frithiof :Soren Kierkegaard, Copenhagen,1963,p.10 .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية؛ حيث قام بترجمته مجاهد عبد المنعم مجاهد، وصدر عن مكتبة دار الكلمة، الطبعة الأولى، القاهرة ، 2009.

(2) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية (الجزء الأول) دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1982، ص 72-73.

(3) اليوميات 1848، نقلا عن حسن يوسف: فلسفة الدين عند كير كجارد، مكتبة دار الكلمة، الطبعة الأولى القاهرة،2001ص 14.

(4) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية، ص177.

(5) المرجع السابق، ص182.

(6) S. Kierkegaard: Attack Upon Christendom, Translated by W. Lowrie New York ،Oxford University Press,1962,p.79.

ويعد هذا الكتاب تجميعا لمقالات كيركجور في مهاجمة الكنيسة والتي نشرها في مجلته (الآن) ، وقد قام بتجميعها ونشرها ولتر لوري أهم المتخصصين في فلسفته تحت هذا العنوان:"مهاجمة العالم المسيحي"

(7) إمام عبدالفتاح إمام : كيركجور رائد الوجودية، ص 186.

(8) حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية ، القاهرة، 1991، ص 356.

(9) إمام عبدالفتاح إمام : كيركجور رائد الوجودية ، ص 208.

(10) S. Kierkegaard: Last years, Journals of 1853 -1855, Trans .and Edite By Ronald Croger Smith ،New York : Harper & Row,1965.p.343

(11) إمام عبد الفتاح إمام: المرجع السابق، ص 208.

(12) فريتيوف فرانت: كيركجور، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الكلمة، الطبعة الأولى ، القاهرة ، 2009. ص103.

(13) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية، ص 223.

(14) Soren Kierkegaard, trans. T.H .Routledge & Poul, London J. Hohelnberg: 1954.p.276.

(15) J. Hohelnberg: Soren Kierkegaard,p.276.

(16) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية، ص 225.

(17) S. Kierkegaard: Last years, Journals of 1853 -1855,p.353-354.

(18) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية، ص 226-227.

(19) المرجع السابق ، ص229.

(20) يمكن الرجوع في ذلك لمزيد من التفاصيل إلى: عبد الفتاح حسنين العدوي: الديمقراطية وفكرة الدولة، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، 2011، ص 107-127.

(21) انظر المرجع السابق، ص 110.

(22) S. Kierkegaard: Last years, Journals of 1853 -1855,p.61.

(23) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية، ص 231.

(24) حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب، ص 356.

(25) ومن هؤلاء النقاد إمام عبد الفتاح إمام الذي يرى أن كيركجور ونيتشه قد أخطأ خطأً فادحا في فهمها للمساواة ، ومن ثم كراهيتها للديمقراطية والاشتراكية وغيرها من النظم السياسية والاجتماعية التي تقف وراء هذه المساواة بين الناس (إمام عبد الفتاح : كيركجور، ص 232) ويشاركه الرأي أيضا فؤاد زكريا بقوله :" إن فهم مبدأ الفردية – على هذا النحو- ينم عن قصور ذهني شديد (فؤاد زكريا: نيتشه، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية، ص 115)

(26) فؤاد زكريا: نيتشه، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية، ص 115-116.

(27) إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية، ص 233.